الدين والسحر

الدين والسحر كلاهما قديم قدم الإنسان نفسه، فلا يستطيع باحث أن يقف على أصل وبدايات أي منهما، إلا أن العلاقة بينهما قد شكلت لدى الباحثين الأنثربولوجيين العديد من الأسئلة؛ أيهما أسبق في الظهور: الدين أم السحر؟، أم أن الدين قد ولدُ من رحم السحر في البدايات الأولى للإنسانية؟.

وراحت الإجابات على تلك الأسئلة تختلف تبعًا لاختلاف النظريات والمدارس الأنثروبولوجية العديدة. ومن أوائل تلك النظريات، الأنثروبولوجيا التطورية والتي ظهرت مع بدايات القرن التاسع عشر، حيث اعتقد رواد تلك المدرسة أن المجتمعات البشرية قد مرت بعمليات من التطور إلى أن أصبحت أكثر تعقيدًا وعقلانية وأقل بساطة وبدائية، فعلى غرار التطور الموجود في الحياة البيولوجية هناك تطور موجود أيضًا في الحياة العقلية[1].

ويعتبر «إدوارد تايلور» من أوائل التطوريين الذين تحدثوا عن علاقة الدين بالسحر وذلك من خلال نظرية عن نشأة الدين البدائي من خلال فكرة الأرواحية ، والأرواحية هي الاعتقاد بوجود كائنات روحية عديدة مكلفة بشؤن البشر سواء بالخير أو بالشر، ومن خلال تلك النظرية رأى تايلور أن الطقوس التي يقوم بها البدائي ما هي إلا صلوات للتقرب من تلك الأرواح التي تدخل بعد الموت في جسد آخر فتصيبه بالمس أو الجنون، وهذه الأرواح يمكن تقييدها عن طريق «الفتشية»[2]؛ أي التعبد لتلك الأشياء التي تسكنها الأرواح.

وبناءً على تلك النظرية ميز تايلور بين الدين والسحر، فإذا كان الدين يرتكز على الاعتقاد في كائنات روحية فإن السحر يرتكز على التماثل والارتباط في الأشياء التي يشبه بعضها البعض في الفكر السحري يعتقد بأنها متصلة سببيًا أحدهما بالآخر، وباستخدام بعض الأساليب السحرية المعينة من الممكن أن تتأثر تلك الأشياء بما يماثلها، وبالتالى فإن السحر مثل العلم لكنه يرتكز على تعليل باطل[3]، ومن هذا المنطلق صك تيلور مصطلح العلم الزائف لوصف السحر.

كما قام «ماريت» بتطوير النظرية الأرواحية وأضاف إليها فكرة «المانا»، والمانا قوة غير مادية تسيطر على الكون عرفت عند العديد من الشعوب البدائية كما عرفت عند القبائل الهندية باسم «واكان»؛ أي السر المحرك للكون، والمانا حسب اعتقاد تلك الشعوب البدائية لها قوة سحرية تختلف عن القوة الطبيعية التي عرفها البشر لذا من المستحسن[4] السيطرة عليها وتسخيرها لصالح الإنسان.

ويرى ماريت أنه في أقدم العصور ما قبل الإحيائية لم يكن هناك تميز بين الدين والسحر لذلك يرى من الأفضل في صدد الكلام عن تلك الشعوب استخدام تعبير "السحري- الديني" على الرغم من تفضيله للفظ مانا[5].

أما «أندرو لانج» فقد سار على نهج تايلور في أن الإنسان في مراحله الأولى قد أحاط الظواهر الطبيعية بنوع من الروحية، لكنه خالف تايلور في أسبقية السحر على الدين حيث وضع لانج السحر في مرحلة لاحقة بعد وجود الدين.

يطرح جيمس فريزر في كتابه (الغصن الذهبي) نظريته حول أصل الدين والسحر حيث يستدل من خلال البحث النظري العميق أن السحر هو المرحلة التاريخية الأولى للبشرية والتي مهدت فيما بعد لظهور الدين منطلقا في بحثه من دراسة تحليلية تطورية لأسطورة ايطالية قديمة و بسيطة هي (اسطورة الإلهة ديانا) ، ويحدد فريزر المراحل التي مر بها العالم من حيث علاقة الانسان بالكون كما يلي (1- مرحلة السحر 2- مرحلة الدين 3- مرحلة العلم)،ويحاول فريزر أن يضع نظريته ليوفق ما بين العلم والسحر لكونهما يقومان على مبادئ منطقية واحدة تعتمد على تداعي المعاني او ترابط الافكار، ويستفيض فريزر في شرح مبادىء السحر عند الرجل البدائي وفي المجتمعات البدائية وما هي الوظيفة المطلوبة من ذلك السحر والذي كان مخصصا للخير العام في مجمله فالساحرالبدائي العمومي يقوم بوظائف هامة موجهة نحوقبيلته ومجتمعه فهو يمارس شعائره ويتلو تعاويذه ورقاه لينزل المطر ويشفي المريض ولينتج الخصب النباتي والحيواني والبشري وليتحكم في الرياح والشمس وكافة الظواهر الطبيعية فيما يتخذ بعضهم السحر الخاص لخدمة شخص معين من اجل ايذاء شخص آخر معين او هزيمة عدو.

السحر هو موقف الرجل البدائي من العالم ونظرته التي تقوم على الملاحظة والتجربة والخبرة الطويلة بظواهر الحياة وأحداثها وأسرارها فيحاول البدائي أن يضع منطقا معينا لتلك الأحداث والظواهر ليؤثر فيها بطريقته الخاصة لكن تلك التجربة الانسانية البدائية لا تخضع للمنطق العلمي الذي يتأسس على قوانين الطبيعة الموضوعية، فالساحر في المجتمع البدائي يضع الفروض ويحاول وضع نظام عقلي لفهم الكون فالسحر بالنسبة للبدائي هو العلم الذي بواسطته يستطيع تسخير قوى الطبيعة والتحكم بها من خلال شعائر معينة يتصل بها الساحر بكائنات معينة. ولذلك يبدو لنا ان فريزر في نظريته يحاول التقريب بين العلم والسحر اللذين يقفان موقفا معارضا من الدين ذلك انها يتشابهان في ان كليهما يحاول أن يضع قواعد منطقية لفهم العالم وقوانينه وظواهره من خلال تداع معين للأفكار، غير ان تداعي الافكار في السحر خاطئ ويناقض قوانين العلم ومنطقه فهو صورة سيئة لتطبيق تداعي الافكار ذلك ان العقلية البدائية سابقة على المنطق في تلك المرحلة الموغلة في القدم. فالسحر اذن نسق كاذب للقانون الطبيعي مضلل للسلوك وهو تداع للأفكار بطريقة خاطئة بينما العلم تداع للأفكار بطريقة صحيحة. ولذلك يطرح فريزر اسئلته محاولا فهم اسباب عدم اكتشاف زيف السحر من قبل البشر منذ القدم فيجيب : ان الزيف لم يكن من السهل اكتشافه وان الخطأ لم يكن واضحا تماما لأن الامر يحتاج الى عقل يتمتع بدرجة غير عادية

من الفطنة في تلك المجتمعات البدائية.
مبادىء السحر وقوانينه

) -1قانون التشابه) الشبيه ينتج الشبيه ويسمى هذا النوع السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة (المعلول يشبه علته.(
يستطيع الساحر تحقيق أهدافه من خلال المحاكاة أو التقليد ومن خلال استخدام الطلاسم والتعاويذ الخاصة فما يفعله الساحر في أي شيء مادي سيؤثر في الشخص المراد ايذاؤه او تدميره فيقوم الساحر بتدمير صورة رمزية للشخص المعني اعتقادا منه ان تلك الصورة اذا تضررت سيتضرر صاحبها ويموت بالضرورة.
مثال : يقوم الهنود الحمر في امريكا الشمالية برسم صورة للشخص المراد ايذاؤه في الطين او الرمل او الرماد ثم يقوم الساحر المختص بطعنها بخشبة صغيرة حادة او سهم معتقدا ان ذلك سيؤدي الى موت الشخص الحقيقي أو مرضه وذلك بحسب نية الساحر وقد يقومون بنحت تمثال صغير ثم يتم طعنه بواسطة ابرة او سهم او ربما يتم حرقه ودفنه ليموت الشخص المقصود ايمانا منهم بأن ما يقع على التمثال وكأن الفعل سينتقل وفقا لقوانين معينة الى ذلك الشخص، ولذلك يقع السحر التشاكلي في خطأ منطقي وهو (أن الاشياء المتشابهة متطابقة.(
غير ان السحر التشاكلي او سحر المحاكاة قد يقصد به خير المجتمع او الشخص او معالجة الامراض او مساعدة المرأة العاقر على الانجاب ، فالمرأة العاقر في سومطرة مثلا تصنع دمية خشبية صغيرة وتحملها في حجرها على امل ان يؤدي ذلك الى انجابها وتحقيق املها ،كما يقوم السحرة في مواسم القحط بطقوس رمزية تحاكي نزول المطر مثل رش الماء او سكبه من خلال غربال ومن خلال طقوس جماعية ينفذها ابناء القبيلة او القرية ،وفي المانيا قديما كانوا يضعون الاسنان المنزوعة خلف الموقد او يقذفون بها من فوق رؤوسهم وراء ظهورهم ويقولون : ايها الفأر اعطني سنك الحديدية الصلبة وخذ بدلا منها سني المصنوعة من عظم.
-2قانون الاتصال : ان الاشياء التي كانت متصلة ببعضها في وقت ما تستمر في التأثير ببعضها البعض حتى بعد انفصالها فيزيقيا ....ولذلك فان ما يفعله الساحر في أجزاء الشخص المنفصلة عنه كالشعر او الاظافر او الثياب غير المغسولة والتي تحتوي على شيء من رائحة تعرق الشخص. ولذلك يقع السحر الاتصالي في خطأ افتراض ان الاشياء التي كانت متلامسة ومتصلة ستبقى على علاقة اتصالية باستمرار
ويشترط السحر الاتصالي وجود وسيط مادي يقوم بتوحيد وربط الاشياء البعيدة ونقل الانطباعات والتأثيرات فقد يتم خلط بقايا شعر الانسان او اظافره بتمثال من الشمع ثم يتم تعريضه من النار ليذوب معتقدين ان ذلك سيؤدي الى موت ذلك الشخص المعني.
ويسهب فريزر في ذكر مئات من الامثلة حول السحر التشاكلي والسحر الاتصالي من خلال خبرة

نظرية واسعة في المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة ويدلل من خلالها على رسوخ السحر في المجتمعات البدائية ويستبعد الظاهرة الدينية ويدلل على ان مرحلة السحر سابقة على الظاهرة الدينية ويقارب ما بين العلم والسحر في محاولة فهم الطبيعة. فاذا كان الدين يعني الاعتقاد في كائنات اسمى من البشر تتحكم في العالم فذلك يتضمن الاعتراف بان احداث الطبيعة مرنة الى حد ما وقابلة للتغيير وان باستطاعتنا ان نقنع او نحث هذه الكائنات القوية التي تحكم الطبيعة على ان تغير سير الاحداث من مجراها الاصلي بما يحقق صالحنا الخاص ولذلك يتناقض السحر والعلم مع الدين لان السحر والعلم يفترضان ان الطبيعة جامدة وثابتة ومنتظمة ومن الصعب تحويلها من اتجاهها عن طريق الاقناع او الرجاء ولذلك فان الدين يفترض ان القوى التي تحكم العالم قوى عاقلة مدركة وشخصية لكن العلم والسحر يرفضان اذ ان السحر وان كان يوجد فيه هذا الشيء بطريقة ضمنية نوعا ما إلا ان العلم صريح في هذا المجال.

-ان فكرة الله كما يقول بعض العلماء لم تظهر إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ الانسانية وبعد تطور كبير وطويل في التفكير الحيوي الانيمي الذي كان يرى الحياة والروح منتشرين بصورة او بأخرى في كل الموجودات وجميع الكائنات فالسحر مهد لظهور الدين ، لقد كان الانسان البدائي يتصور الاله كائنا من نوع معين بالذات يختلف عن الكائن الذي يقصده الرجل المتحضر ولم يكن هذا البدائي ينظر الى تلك الكائنات الخارقة على انها اسمى منه فالبدائي يستطيع ان يخيفها ويرهبها ويقهرها لكن مع توالي عجزه تجاه الظواهر الطبيعية التي غالبا ما كانت تخونه وتبطل سحره فقد ثقته بنفسه امام قوة تلك الكائنات وتراجع مستوى احساسه بالتساوي مع تلك الالهة ولذا فانه سيصبح عاجزا عن التحكم بالطبيعة من خلال السحر فبدأ التحول نحو الحالة الدينية شيئا فشيئا من خلال تقديم القرابين والصلاة لتلك القوى وبدأ تراجع السحر ليهبط الى مستوى الفن الاسود عديم النفع واضمحلت فكرة الالهة المتساوية مع ذلك الانسان البدائي فقد كان البدائي يعتقد ان الاله عبارة عن ساحر قوي غير مرئي يمارس تعاويذه من وراء حجاب تماما مثل تعاويذ الساحر البشري.

-ويسهب فريزر وبأسلوب ممتع وشيق حول شخصية الساحر في المجتمع البدائي والمجتمعات القديمة فهو ينجح حينا ويخفق حينا اخرى وقد يتعرض الساحر الى القتل والتعذيب والضرب اذا ما باءت مهمته (انزال المطر مثلا) بالفشل كما يناقش فريزر من خلال استعراض طويل وممتع ايضا نشوء بذرة الملوك فالساحر يصبح ملكا والملك يصبح ساحر وأحيانا يجمع الساحر ما بين السلطتين الزمنية والروحية ،وينتصر الدين في النهاية على السحر

يمكننا القول إنّ من مقدمات تايلور ولانج انطلق جيمس فريزر في إرساء دعائم النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا[6]، فقد حدد فريزر مراحل تطور البشرية على النحو التالي؛ السحر ثم الدين ثم العلم، وبذلك يقرر فريزر أسبقية السحر على الدين، حيث إن الانسان

قد عمد في تلك المرحلة السحرية إلى إخضاع الطبيعة لرغباته باستخدام التعاويذ والطلاسم وذلك قبل أن يتقرب إلى الآلهة.

كما رأى فريزر أن السحر لم يؤدي إلى الدين فقط بل إلى الطقوس والصلوات المصاحبة للدين أيضًا، فكثير من الصلوات والدعوات هي من طبيعة العزائم السحرية وقد تطورت من السحر ودخلت في صلب الدين.

الدين والسحر من منظور الأنثروبولوجيا الوظيفية

رأى رواد تلك المدرسة أن المجتمع مثل الكائن الحي؛ فكما أن لكل عضو من أعضاء الكائن الحي وظيفة محددة كذلك المجتمع أيضًا، لكل وحدة من وحداته وظيفة محددة، وبين هذة الوظائف علاقات تعمل على التكامل والاستمرار[7]، ويمكن القول إن الرؤيا الوظيفية في الأنثروبولوجيا تبدأ من أعمال «إميل دوركايم»، حيث كانت النقطة الرئيسية لدى دوركايم في تعريفه للدين هي التمييز بين المقدس والمدنس.

فالدين وفقًا لتعريفه نظام موحد من الاعتقادات والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة والتي تعني الممنوع والمرفوض، وتلك الاعتقادات والممارسات التي تتوحد في أخلاق المجتمع الواحد تعرف باسم كنيسة وعلى الجميع أن يلتزم بها[8]، ويرى دوركايم أن «الطوطمية» تمثل ترابط المجتمع وليس الدم، والطوطمية كائنات تحترمها القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين طوطمه.

وقد يكون هذا الطوطم حيوان أو نبات وهو يحمي صاحبه، وفي المقابل يحترمه صاحبه ويقدسه، فإذا كان حيوانًا لا يقوم بقتله، واذا كان نباتًا لا يقوم بقطعه، وهكذا رأى دوركايم أن الطوطمية هي أقدم عنصر من عناصر الدين وليس الأرواحية كما تصورها التطوريون وبالأخص تايلور.

وإذا كان الدين قد حظي بالمكانة الأكبر في دراسات دوركايم على القبائل البدائية فإنه لم يخصص للسحر سوى قدر قليل من كتاباته، حيث يرى إن هناك فرقًا جليًا بين الدين والسحر، فالأول يعود لمشاعر جماعية والآخر هو نتيجة إدراك فردي، كما أن الدين هو نظام متماسك من المعتقدات والممارسات التي تتعلق بأشياء مقدسة ومحرمة، أما السحر فهو فردي وينحصر في مفهوم الأمر المدنس، كما اعتبر دوركايم السحر ينحدر من الدين وليس أصلاً زائفًا للدين كما هو الشأن عند فريزر.

وعلى الجانب الآخر نجد «ليفي برول»[9]، وهو أحد رواد الأنثروبولوجية الوظيفية، قد تقارب مع ماريت في أن محاولة فصل الدين عن السحر هي محاولة عقيمة، فالدين والسحر مظهران لفكرة واحدة تميزت بها عقلية الشعوب البدائية وعرفها بظاهرة ما قبل التدين.

أما «مارسيل موس» فقد فرق بين طقوس الدين وتجارب السحر، فالسحر عنده هو بقايا معتقدات قديمة، وأن ما يميز السحر عن الدين هو مفهوم التحريم الذي يضع حدًا فاصلاً بين السحر والدين، فالدين يتعلق بالخير والسحر يتعلق بالشر.

ولقد وصلت الأنثروبولوجيا الوظيفية ذروتها على يد مالينوفسكي[10]، فقد كان أول أنثروبولوجي لا يستقي معلوماته عن الشعوب البدائية من الرحالة والمبشرين، حيث تعايش مع أهالي ميلانيزيا لمدة أربع سنوات، ولقد ابتدأ مالينوفسكي أعماله بنقد نظرية تايلور حيث رأى أنها قد أقيمت على مدى ضيق جدًا من الحقائق، فهذة النظرية تجعل البدائي تأمليًا وعقليًا أكثر من اللازم، كما أوضح أن البحث الميداني الذي قام به على أهالي ميلانزيا أوضح له أن البدائي يهتم بصيده وزراعته أكثر من التفكير حول الأحلام والرؤى.

كما وجّه نقده أيضًا إلى فكرة المانا عند ماريت، ورأى مالينوفسكي أن تلك النظريات التي تضع المانا على قاعدة السحر تتجه كليًا في الاتجاه الخاطئ[11]. أما عن العلاقة بين الدين والسحر من وجه نظره، فكلاهما يعمل على مواقف الضغط الانفعالي التي يتعرض لها الإنسان في حياته مثل الموت والحب والكراهية، فالدين والسحر بمثابة مخرج للخروج من تلك الأزمات حيث لا يوجد طريق عملي تجريبي للخلاص من تلك الأزمات سوى مشاعر الإيمان بعالم غيبي.

كما يرى أن الدين والسحر متشابهان فكلاهما يوجد في جو من المعجزات كما يحاط كل منهما بالمحرمات «تابو»، أما ما يميز السحر عن الدين عند مالينوفسكي فالسحر فن عملي له أساليب محددة كالتعويذة، أما الدين فهو في تركيبه معقد ولا يخضع لمثل هذا الأسلوب من التبسيط، كما أن السحر قائم على مبدأ التوريث من جيل إلى جيل مثل توارث المهن، أما الدين فإنه شأن من شؤون الجميع يساهم فيه كل فرد بدور نشيط، فكل فرد من أفراد القبيلة يجب عليه المرور بطقوس التأهيل، وهو نفسه سيقوم بتأهيل الآخرين.

المراجع

1. أحمد محمد جاد: المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الأديان، (مجلة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، عدد خاص، 2007، ص1.(
2. علي سامي النشار: نشأة الدين، (دار السلام – القاهرة، 2009، ص36 وما بعدها.(
3. أحمد محمد جاد: المناهج الاجتماعية لدراسة الأديان، (مجلة الجمعية الفلسفية المصرية – مصر، ص35.(

4. دينكين ميشيل: معجم علم الاجتماع، ت: إحسان محمد حسان، (دار الرشيد – بغداد، وزارة الثقافة، 1980، ص24.(
5. إيفنز برتشارد: الأناسة المجتمعية، ت: حسن قبيسي، (دار الحداثة، 1982، ص190.(
6. جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم، (ص 21و72.(
7. جاك لومبار: مدخل إلى الأنثروبولوجيا، ت: د. نبيلة إبراهيم (رؤية للنشر - القاهرة، ص195.(
8. أحمد محمد جاد: المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الأديان، (مصدر سابق، ص13). انظر أيضًا: علي عبد الواحد وافي: الطوطمية أشهر الديانات البدائية، (عدد سلسة اقرأ 194.(
9. سامية الساعاتي: السحر والمجتمع، (دار النهضة العربية، 1983، ص138.(
10. شمس الدين الكيلاني: من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي، (ص76 وما بعدها.(
11. مالينوفسكي: السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية، ت: فيليب عطية (الهيئة المصرية